

الباب الثاني
فريد الدين عطار وحكاية الشيخ صنعان
الفصل الأول
حياة فريد الدين عطار

الشيخ العطار هو محمد بن أبي بكر إبراهيم بن اسحق، وكنيته أبو حامد، ولقبه فريد الدين، وشهرته العطار النيسابوري، ولد في نيسابور عام 513 هـ.

عرف فريد الدين النيسابوري بالعطار لأنه كان يعمل بالعطارة والطب، ويقال إن العطار قد ورث العطارة عن أبيه، حتى قيل إنه أصبح مالكا في نيسابور.

وتقع في مدينة نيسابور في إيران وأمضى العطار به ثلاثة عشر عاما من طفولته، التزم فيها ضريح الإمام الرضا ثم أكثر بعد ذلك من الترحال فزار الراي والكوفة ومصر ودمشق ومكة والمدينة والهند وتركستان ثم عاد فاستقر في كدكن قرينته الأصلية واشتغل تسعا وثلاثين سنة من حياته في جمع أشعار الصوفية وأقوالهم.⁶

أورد الجامي في نفحات الإنسان قصته قال إنها كانت السبب الذي دفعه للتروع نحو أهل السلوك والطريقة، أن كان يعمل في في دكانه، عند ما أقبل عليه درويس وطلب منه (شيئا لله) فلم يعطه، فقال له الدرويش: كيف ستكون ميتتك؟ فقال له العطار: مثلما تموت أنت. فقال الدرويش: وهل يمكنك أن تموت كما

⁶ دولتشاه، تذكيرة الشعراء، (لیدن 187 م) ص 187

أموت؟ فقال: ولم لا. فوضع الدرويش جفنة خشبية كانت بيده تحت رأسه وهو يقول: الله. ثم فاضت روحه فوراً. فتغير حال العطار وأغلق باب دكانه، ونحا نحو أهل الطريقة.⁷

أما تاريخ وفاة الشيخ العطار فقد اختلفت فيه آراء أصحاب التواريخ اختلافاً كبيراً. فالقاضي نورالله التستري يجعله في سنة 627 هـ.

وأهم مؤلفاته الكتب الآتية: يند نامة (Yendhu Nameh) ومنطق الطير، وتذكره الأولياء، وإلهي نامة (Elahi Nameh) ومختار نامة، ومصيبة نامة (Mosibat Nameh) وجواهر نامة، وشرح القلب، واشتر نامة، ومظهر العجائب والديوان.⁸

وكان كثيراً من كتبه شعرياً فارسياً، مثل مندى الطير، ويند نامة (Yendhu nameh) أي كتاب النصيحة وهو كتاب صغير مجمل مليء بالممواعض الأخلاقية، وتحدث العطار نفسه في كتاب تذكرة الأولياء. ورأى الباحث كان الشيخ العطار هو الشاعر والصوفي.

الدكتور بديع محمد جمعة، منطق الطير، (بيروت- لبنان: دار الاندلس، 1979 ص. 721

الدكتور بديع محمد جمعة، منطق الطير، (بيروت- لبنان: دار الاندلس، 1979 ص. 842

الفصل الثاني

التعريف بحكاية الشيخ صنعان والحقيقة عن هذه الحكاية

أ. حكاية الشيخ صنعان

حكاية الشيخ صنعان من القصص التي لها مكانة خاصة في أدب العارف الكبير مولانا العطار، ترد لنا القصة في كتابه منطق الطير والذي تدور أفكاره حزل مجموعة من الطيور باحثاً عن معشوقها الحقيقي.

ولم تكد أنواع الطيور تصمم على الوصول إلى السيمرغ حتي عادت فوجدت الطريق إليها طويلة متبعة، فأخذ كل طائر منها يلتمس لنفسه عذرا من الأعذار. فاعتذر البلبل بأنه مشغول بحب الوردة النضيرة واعتذرت البيغاء بأن جمالها جعلها للأقفاص أسيرة، واعتذر الطاووس بادعاء الخجل والتواضع لاقتران اسمه بقصة إخراج ادم وحواء من الجنة، واعتذرت البطة بعدم استطاعتها البعد عن الماء، واعتذرت الحجلة بأنها لاتستطيع البعد عن الجبال والأدوية، واعتذرت البجعة بعدم استطاعتها مغادرة البحيرات الصافية، واعتذرت البومة بعدم استطاعتها مغادرة الأماكن الخربة التي اعتادت أن ترتادها، وأبدي طائرهما إعجابه بقدرته على منح الملك ألقابهم، واعتذر الصقر بأنه لايستطيع أن يترك مكانه الممتاز، واعتذرت الصعوة بأنها ضعيفة هزيلة يقعدها الوهن والسقم. وجميع هذه الأعذار التي يبديها الأدميون عندما يقعون عن التماس عالم الروح ويعجزون عن المضي فيه، وقد أخذ

الهدد الحكيم يجيب عليها واحدا واحدا ويتمثل بطائفة من الحكايات والقصص للتدليل على آرائه وأفكاره.

الهدد يرشدهم أن عزيمة السلوك لا يدفعها القوة او الضعف أو الكفر والإيمان، بل تدفعها قوة ترتفع عن ملازمة الكفر أو الإيمان. فنراه يقول تعقيبا على كلام الطيور وتحيرهم في كلامه بعد ما أوضح لهم أن الروح والجسد حجب تحجب الوصول لنهاية الطريق، وأن العاشق الحقيقي هو من يتخلى عن هذا الحجب ليرتفع الى صفة العاشق الحقيقي.

وبعد أن يكمل العطار إيضاحه حول موقع العشق بين الكفر والإيمان وكيف أنه أدوات السالك الوحيدة القادرة على إيصاله في نهاية المطاف بمعشوقة، يخرج لنا العطار بقصة لها عنوان خاص وتركيبه خاصة تخرج عن سياق الموضوع الا انها جاءت لتخدم الفكرة السابقة.

حكاية الشيخ صنعان وعقيدته لباس الزنار بعلت عشقه الفتاة المسيحية. وملخص الحكاية يدور حول الشيخ صنعان الملازم للحرم مدى خمسين عاما، ويرافقه أربع مائة من مريديته ذوى المنافسة في الرياضة الروحية، فهم لا يعرفون الملل أو الراحة. والشيخ صنعان له مواهب ربانية فهو صاحب الكشف وصاحب السر.

الشيخ صنعان الذي كان يقطن مكة مع أربع مائة من مريديته، وكان على قدر كبير من الصلاح والتقوى ثم رأى في منامه انه رحل إلى بلاد الروم وسجد للصنم، ورؤية الصالحين صادقة. فأصرع بالذهاب إلى بلاد الروم مع مريديته، وهناك

اغرم بفتاة مسيحية غراما شديدا بعد كشفها عن حجاب وجهها اضطربت نار العشق في قلب الشيخ صنعان وضاع متاعه من دينه وتقواه، ولما ادركت الفتاة حبه لها ومقدار شغفه بها عرضت عليه شروطها وهي: السجود أمام الصنم، واحراق القرآن، وشرب الخمر، والبعد عن الإيمان.

فقبل في بداية الأمر شرب الخمر دون غيرها، وبعد أن تمكنت منه الخمر وسيطر عليه العشق، قبل أن يكون مسيحييا ثم عرض على الفتاة الإقتران به، فاشتترطت أن يكون صداقها خدمة الخنازير عاما كاملا، فقبل الشيخ. حاول مريده إصلاحه دون جدوى فأسرعوا بالعودة الى الكعبة، وكان للشيخ صنعان صديق يقطن الكعبة حين علم هذا الصديق بما حدث للشيخ صنعان اغتم وحزن حزنا شديدا. فأسرع بالسفر إلى بلاد الروم مع المريدين للحاق بالشيخ، وواصلوا التضرع والتشفع أربعين ليلة فاستجاب الله لتضرعهم، وذات ليلة رأى أحد المريدين الرسول عليه السلام فطلب منه الشفاعة للشيخ عند الله، فتشفع له الرسول الكريم، فتخلى الشيخ عن ما فعله، وعاد الجميع إلى مكة مرة ثانية.

وبعد رحيلة رأت الفتاة في نومها أن الشمس قد سقطت بجانبها وطلبت منها الإسراع صوب الشيخها، فأسرعت خلف الشيخ حتى وصلت اليه بالحجاز، فاضطرب الشيخ حين علم بقدمها ولكنها طلبت منه أن يعرض عليها الإسلام، وما أن اسلمت روحها.⁹

الدكتور بديع محمد جمعة، منطق الطير، (بيروت- لبنان: دار الاندلس، 1979) ص. 72-73⁹

ب. حقيقة عن حكاية الشيخ صنعان

هذه المسألة يجدر بنا أن نعرض لقصة الشيخ صنعان كما ذكرها العطار، ثم نقارنها بالقصص القريبة الشبه منها: كان الشيخ صنعان يقطن مكة مع أربعمائة من مريديه، وكان على قدر كبير من الصلاح والتقوى، ثم رأى فيما يرى النائم أنه رحل إلى بلاد الروم وسجد للصنم، ورؤية الصالحين صادقة، فأسرع بالذهاب إلى بلاد الروم مع مريديه، وما أن وصلوا حتى رأوا فتاة، تجلس على سقف بناء مرتفع، وكانت غاية في الجمال فتعلق بها قلب الشيخ في الحال، فساد الاضطراب لجميع مريديه، فبدلوا له النصيح دون جدوى، وأخيرا اصيحت خلوة الشيخ محلة الحبيب، ولما أدركت الفتاة المقدار شغفة بها عرضت عليه شروطها وهي: ... إلى الأخير. هذه قصة الشيخ صنعان كما رواه العطار، فما أصلها إن لم يكن العطار مبدعها؟

يذكر أحمد الأبشيهي في كتابه: المستطرف في كل فن مستظرف الجزء الأول،¹⁰ أن الشيخ عبد الله الأندلسي كان يسكن بغداد، وكان من أصحاب الجنيد والشبلي، وعدد مريديه إثناعشر ألفا، ثم ذهب إلى بلاد الروم وتعلق بفتاة الأمير هناك فتخلي عنه أصحابه وعادوا إلى بغداد، ثم حول عن يقترن بالفتاة فكان صداقها خدمة الخنازير. فعاد إليه أصحابه مرة أخرى ولكنه لم يأبه بنصحهم. ولكن بعد أيام ثلاثة فواجئوا بالشيخ أمامهم وقد تخلى عن كفره وعاد إلى سابق عهده. ثم

الدكتور بديع محمد جمعة، منطق الطير، (بيروت- لبنان: دار الاندلس، 1979) ص. 1073

عادوا جميعا الى بغداد، فإختفى به الجميع وعلى رأسهم الخليفة.

ولكن الفتاة المسيحية تعلقت به وأسرت خلفه الى بغداد وقد ساعدها في ذلك الخضر بعد أن أخبرها بضرورة اعتناقها الإسلام فاعتنقته.

وبعد وصولها بغداد لظمت زاوية شيخها وأكثرت من العبادة حتي هزلت فمرضت وتوفاها الله، فحزن الشيخ عليها حزنا اودى بحياته.

ونحن نرى بعض التقارب بين الحكايتين في ذهاب الشيخين إلى بلاد الروم ثم كون الصداق في كلا الحالتين رعاية الخنازير، ثم توبة الشيخين وعودتها إلى ديارهما، ثم لحاق الفتاة في كل منهما بشيخها واعتناقهما الإسلام.

ولكن هناك اوجه للخلاف بين الحكايتين، فالشيخ صنعان يسكن مكة أم الشيخ عبد الله اللأندلسي فيسكن بغداد، كذلك الإختلاف في عدد المريدين زفي عدد صحبوا كلا من الشيخين في رحلته إلى بلاد الروم. كما نجد أن الخليفة له ذكر في قصة الأندلوسى ولأثره له في حكاية الشيخ صنعان. واختلاف الحكايتين كذلك في سبب وفاة المعشوقة، فالأبشيهي ذكر أن الوفاة نتيجة للعبادة المتصلة، أما العطار فقد جعل أثر له في قصة العطار.

وعلى هذا فربما يرى البعض تأثر العطار بمظاهر الالتقاء بينه وبين ما ذكره الأبشيهي ولكن مظاهر الاختلاف بينهما.

ومن بين الذين ذهبوا الى الدير كذلك مدرك بن على الشيباني وقد كان يعيش بالعراق، وكان يذهب إلى الدير كثيرا، فتعلق بحب فتى مسيحي اسمه عمرو فتخلى عن الاسلام واعتنق المسيحية ونظم شعرا وصف فيه حاله هذه، كما تحدث فيه عن رسوم واداب المسيحيين.¹¹

ولكننا لانجد في هذه القصة تقاربا بينها وبين قصة الشيخ صنعان إلا ذهابهما إلى الدير، مما يجعلنا نرفض تأثر العطار بهذه القصة.

وشيوخ آخر هو ابن السقا وكان قارئاً للقرآن حسن الصوت وكان يعيش وبغداد ثم ذهب الى بلاد الروم حاملا رسالة من الخليفة، فوقع هناك في حب فتاة الملك فطلب اى اقتران بها، فاشترطوا عليه اعتناق النصرانية فقبل.

ولكن لا يوجد دليل على أن العطار تأثر بهذه القصة ونسج قصة على منوالها، فلا وجه للشبه بينهما الا في الذهاب الى الروم واعتناق المسيحية من أجل المعشوقة. ولكن اذا كان العطار لم يأخذ قصته من هذه ولا من تلك، فمن أين أخذها؟

يقول الأستاذ مجتبي مينيوي: وقد أخذ العطار هذه الحكاية من كتاب الغزالي، فقد ورد هذا الاسم في تحفة اللوك، والمقصود من الشيخ صنعان عند العطار هو، الشيخ عبد الرزاق الصنعاني الذي ذكر في تحفة الملوك، ولقد أورد

فروزا انفر، شرح ونقد وتحليل آثار شيخ فريد الدين محمد عطار نيسابوري،(طهران: 134) ص. 325-327¹¹

الشاعر التركي كلشهرى الذى ترجم منطق الطير إلى التركىة
حكاية الشيخ صنعان تحت عنوان حكاية الشيخ عبد الرزاق.
وقد اتفق الأستاذ فروز انفر مع مينوى فى ذلك، فأرجع
قصة الشيخ صنعان إلى ما جاء بالباب العاشر من تحفة الملوك
لأبى حامد الغزالى.

ووجب علينا أن نعرض قصة الشيخ عبد الرزاق
الصنعانى كما ذكرها الأستاذ فرور انفر فى كتابه.

فى حكايات مثل هذه، كان فى الحرم شيخ اسمه عبد
الرزاق الصنعانى وكان رجلا عظيما وصاحب كرامات، وكان
شيخا لما يقرب من ثلاث مائة مريد. وذات ليلة راي فى منامه
صنامه صنما يجاوره، فهب من نومه وتمكن الضيق منه
وشغل قلبه، فذهب إلى بلاد الروم وصحبه كل مريديه ووصلوا
ذات يوم إلى مكان ما ورأوا كنيسة فنظر الشيخ فإذا به يرى
على السقف فتاة مسيحية فوق فى عشقها.

وسرعان ما خلع المرقع ولبس ثياب الرهبان وعقد حول
وسطه الزنار. فقال المريدون: ما هذه الحالة؟ فأجاب: إن ما
أصابنا بسبب القلب، ولا يمكننا مخالفة القلب، فشرط الأعمال
صدق الظاهر والباطن. وبعد طول نقاش بينهما عاد المريدون
من الدير وتركوه إلى القضاء والقدر، وبدأ يعمل فى خدمة
الخنازير.

وكان له مريد بخراسان وكان رجلا عظيما فعرف هذه
الحالة فأسرع صوب مكة وقال للمريدين: أين الشيخ؟ فأخبره
المريدون بما وقع للشيخ. فقال لهم: لما لم تقيموا حيث يقيم؟

فقالوا كنا نرغب في ذلك ولكن الشيخ رفض وانتهى الحديث بينهما إلى أن أعد الشيخ والمريدون عدتهم للسفر إلى بلاد الروم.

وفي ذات أمسية رأي ذلك الشيخ الرسول عليه السلام فسأله الرسول ماذا تفعل ببلاد الروم؟ فأجابه الشيخ سائلاً: وماذا أنت فاعل ببلاد الكفر؟ فقال الرسول عليه السلام: جئت لكي أخلص شيخاً عوتب من قبل.

فاستيقض الشيخ في الحال، ورأى شيخه يلقي عن نفسه رداء الرهبان وقطع الزنار، ثم أحضر الماء واغتسل وجدد إسلامه وأعاد ارتداء لباس الإصلاح وحينما عرفت الفتاة هذا الحال أقبلت إليه، وطلبت منه أن يعرض عليها الإسلام فعرضه عليها وأسلمت وعادوا جميعاً إلى الكعبة.

إذا قارنا بين قصتي الغزالي والعطار نجد أن أركان القصة فيهما واحدة، ولكن نجد بعض الاختلافات اليسيرة، فعدد المريدين في قصة الغزالي ثلاثمائة وفي منطق الطير أربع مائة. كما نجد اختلافاً في قصة اسلام الفتاة المسيحية في القصتين كما أن نهاية القصة المختلفة في الكتابين فتحفة الملوك لم تشر إلى وفاة الفتاة المسيحية بعكس منطق الطير.

كما أن العطار بخيال الشاعر حاول الإفاضة في المناقشة الممتعة التي حدثت بين الشيخ ومريديه بعد أن انحرف، وكذلك في مناجاة الشيخ لمعشوقته.

وعلى هذا فيمكن الموافقة على أن العطار أخذ فكرة قصته من تحفة الملوك للغزالي وأضاف إليها الكثير من خياله

الشعري، فجاءت على هذه الصورة التي وجدناها عليها في منطلق الطير.

ولكن من هو الشيخ صنعان: ذكرت من قبل أن الأستاذ مينيوي يري أنه الشيخ عبد الرزاق بن همام وتابعه في هذا الرأي الأستاذ فروز انفر، فمن هو الشيخ عبد الرزاق بن همام: يخبرنا ياقوت الحموي في نهاية الحديث عن مدينة صنعاء باليمن: ومن مشايخها الشيخ عبد الرزاق بن همام بن نافع أبو بكر الحميري أحد الثقات المشهورين. وكان مولده عام 129 هـ، وأنه التقي بأحمد بن حنبل، ولكن في آخر حياته أصيب الشيخ بالعمي فضعفت الثقة في الأحاديث التي كان يرويها، كما اتهمه البعض بالتشيع.¹²

وربما أن اسناد هذه القصة إليه جاء نتيجة لتشيعه، فحاول خصومه التماذي في اتهامه حتى اوصلوا هذا الأتهام إلى حد الكفر واعتناق المسيحية.

ياقوت الحموي، معجم البدان، القاهرة : (1916) ص. 389¹²